الخدمة الاجتماعية

واجب على الشعب قبل الحكومة

لحضرة صاحب السعادة عبد السلام الشاذلى باشا

"الخدمة الاجتماعية" تعبير حديث من مواليد القرن العشرين، ولكنه يقوم على أصل إنسانى قديم عرف فى جميع العصور، وهو "الاحسان" الذى قررته الديانات جميعا بعد ما أقرته الفطرة البشرية منذ بعد الأجيال.

ولكن "الخدمة الاجتماعية" لا يقتصر معناها على ما يفهم من معنى الاحسان، وإنما هى تنظيم لهذا الاحسان وحسن استخدام له وتوسع فى معناه وضمان لدوامه. فالذى يعطى المتسول قرشا، والذى يمنح الجائع لقمة، والذى يهب العارى كساء.. كل أولئك يقدمون "إحسانا" ولكنهم لا يضمنون للمتسول والجائع والعارى انتظام الحياة بعد اللحظة التى يفارقهم فيها، وقد يضعون الإحسان فى غير موضعه، بينما الجماعات والهيئات التى تقوم بالخدمة الاجتماعية تولى مبراتها وتدقق فى بحوثها وتكفل للمحتاجين بينها الاستقرار والدوام.

وعلى سبيل المثال أعرض صورا من الخدمات الاجتماعية التى تنهض بها بعض الهيئات فى أوربا وأمريكا :

(أولا) يقول الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه "الانجليز فى بلادهم" "إن الحكومة الانجليزية لم تنشئ مستشفى واحدا فى أى عهد من تاريخ انجلترا، وما هذه المستشفيات الضخمة المنتشرة فى البلاد إلا عمل أفراد وجماعات. كذلك هذه الجامعات الفخمة والمدارس الكبيرة إنما أنشئت بأموال الأفراد والجماعات.

وتفصيلا لهذا الذى ذكره الدكتور حافظ باشا نذكر أن تبرعات الجمهور هى التى أنشأت هذه المستشفيات الضخمة فى جميع العصور، وإذا كانت المجالس المحلية قد أنشأت بعض المستشفيات قريبا فإن هذه لا تزال صغيرة لا شهرة لها ولا تقاس بتلك المستشفيات الشعبية العظيمة.

كما إن إنشاء الملاجئ للأيتام والمحرومين فى طول البلاد الانجليزية وعرضها إنما قام على مجهود الهيئات وتبرعات الأفراد، وهناك "بيوت برناردو" التى تتولى جمع الإعانات فى الأعياد والمواسم على مختلف أنواعها من نقود وأطعمة وملابس ولعب تهديها إلى الأطفال

المحرومين فى عيد الميلاد ، وقداستطاعت هذه البيوت أن ترسل إلى المستعمرات الانجليزية نحو ثلاثين ألفا ممن كفلتهم وربتهم من هؤلاء الأطفال فأصبحوا بفضلها رجالا يرفعون علم الامبراطورية فى جميع بقاع الأرض ولولاها لعاشوا مشردين وانقلبوا لصوصا ومجرمين .

ووزارة المعارف الانجليزية لم تنشأ إلا فى سنة ١٨٩٩ أى أن عمرها لايزيد على ثلاثة وأربعين عاما ، بينما التعليم فى انجلترا أقدم من نظام الحكم ، إذ أن الجامعات القديمة أنشئت قبل أن يضع الملك أدوارد الأول فى سنة ١٢٩٥ أساس الحكم النيابى الحالى بقرن من الزمان أما المدارس فهى أقدم من الأمة البريطانية ذاتها إذ أن بعضها أسس قبل أن يصير الانجليز أمة !

(ثانيا) قامت نهضة الدانمارك على أساس " المدارس الشعبية " واسمها يدل على صبغتها ، إذ ليس للحكومة هناك دخل فى تأسيس هذه المدارس ولا الانفاق عليها أو إدارتها ولبيان أثر هذه المدارس فى تلك الأمة الصغيرة التى أصبحت بفضل إنتاجها الزراعى والحيوانى من أغنى وأرقى الشعوب نقتطف من كتاب للأستاذ أمير بقطر بعنوان " الدانمركة " هذه الفقرات :

"إذا نسيت الأمة أفضال المدارس الشعبية ، فهيهات لها أن تنسى ماهيأته هذه المدارس للديمقراطية من سبل النجاح . ففيها يتلقى الطلبة بطريقة عملية أن الناس متساوون فى كل ماتمتد اليه يد الجماعة بغض النظر عن مقدار الثروة التى يعيشون عليها ، وأن أفراد الأمة لايقدرون بحجم المزايا والكفايات والمواهب التى منحتهم الطبيعة إياها ، وإنما باستثمار هذه المواهب والكفايات والمزايا وتطبيقها على مبادئ الحياة العامة .

"لقد سدت هذه المدارس الفجوات الواسعة الغور التى كانت تفرق بين طبقات الأمة الاجتماعية ، وكانت أساس لجماعات التعاونية التى تشاد على مبادئ الديمقراطية الحقة ، وفتحت للفلاح أبوابها على مصاريعها ليغترف من بحر معارفها مايؤهله لا لأن يكون عضوا عاملا فى هذه الجماعات وحسب ، وإنما ليكون مديرا لها إذا ماطلب اليه ذلك .

"لقد كان شعار هذه المدارس منذ تأسيسها : الحرية مع تحمل المسئولية ، فانطلق طلبتها إلى ميادين الحياة مشبعين بهذ الشعار ، شديدى الوثوق بذواتهم ، متفانين فى حب أوطانهم ، مسلحين بكل عدة يشقون بها طريقهم فى حياة مكللة بالأشواك".

(ثالثا) يوجد فى انجلترا ما يسمى " أندية الصبيان العمال " ويبلغ عددها نحو ألف وسبعمائة ناد ، ووظيفة هذه النوادى هى العناية بالمراهقين من الصناع الذين يحتاجون الى تمضية أوقات الفراغ فى بيئة صالحة حتى لاتتأثر أخلاقهم فى هذه المرحلة بعادات سيئة

تؤدى بهم الى نهاية وخيمة . وقد قام الشعب بإنشاء هـذه النوادى من مال التبرعات ثم اعترفت بها الحكومة منذ أعوام .

وفى كل ناد من هذه الأندية توجد مكتبة للطالعة وغرف خاصة لألعاب التسلية وغرف للتدريب على بعض الصناعات ترقية لمستوى هؤلاء الصبية فى حرفتهم أو لمساعدتهم على تعلم صناعات جديدة تزيد كسبهم .

ويبقى الصبيان فى هذه الأندية ما بين سن الرابعة عشرة والثامنة عشرة وهى أخطر مرحلة فى عمر الإنسان فلا يلجئون إلى الوسائل الشاذة أو المنحطة فى تمضية أوقات الفراغ .

وكذلك يوجد ما يسمى " بالأندية الشعبية " وهى تقبل جميع طبقات الجمهور وترمى الى الترفيه عنهم باستخدام النادى للسمر البرىء وشغل أوقات الفراغ بألعاب مسلية أو منشطة أو بالقراءة والاطلاع وسماع الراديو . كما أنها تنظم زيارات منظمة لمنازل الحى الذى تقع فيه دراسة حالة الأسر الفقيرة بوساطة زائرة صحية تعنى بالأطفال ونظافتهم ورضاعتهم وعلاجهم ؛ وفى خلال هذا الاتصال تدرس مشاكل الأسرة وترتب نتائجها فتوضع وسائل العلاج على أساس هذه الدراسة المباشرة .

(رابعا) نشأت فى انجلترا سنة ١٨٦٥ هيئة باسم " جيش الخلاص " أسسها القس "وليم بوث" الذى هالته كثرة الجرائم وتفشى الرذيلة فى الأحياء الفقيرة فى لندن ، فتنازل عن لقبه الدينى وسمى نفسه " جنرالا " وقسم المتطوعين الذين انضموا اليه الى فرق وسماهم " جيش الخلاص " .

وهذا الجيش السلمى مؤلف من الرجال والنساء الذين يقصدون الى المنزل والشارع والحانة والمتجر ، حيث تفشو الرذائل المختلفة فيحاربونها فى عقر دارها ويحاولون هداية الضالين الى الطريق القويم بالإرشاد والمصاحبة وتيسير سبل الحياة القويمة .

وقد أسس هذا الجيش "بيوت السجن" التى يلجأ اليها المجرمون الخارجون من السجون فتطهرهم وتضمنهم أمام المجتمع وتيسر لهم وسائل الحياة و " البيوت الصناعية للنساء" وفيها تجد المرأة عملا شريفا يعصمها من الاتجار بعفافها كما أسس بيوتا للأمومة للعناية بالحوامل والوالدات الفقيرات وبيوتا للعمل حينما وجد أن التعطل والفقر سببان أصيلان لمعظم الجرائم فى أحياء العمال .

(خامسا) يقول الدكتور "تشارلس و طسن " مدير الجامعة الامريكية بالقاهرة عن الخدمات الاجتماعية فى أمريكا :

" فى أمريكا اليوم عدد لا يحصى من الجماعات الخيرية التى تعمل لرفاهية الشعب وإسعاده ، حتى أن الإنسان ليدهشه عدد الصفحات التى تشغلها أسماء هذه الجماعات

فى دليل التليفون فى كل مدينة من المدن الكبرى . ومع أن أهداف بعض هذه الجماعات محدودة إذ يقتصر عملها على معالجة مشكلات معينة كالصحة العقلية مثلا ، ويضيق ميادين بعض منها فلا تتسع إلا لطائفة دينية معينة أو أفراد جنس خاص دون الآخر ، فإننا نجد فى كل هيئة اجتماعية عددا وافرا من الجمعيات التى تعمل لخدمة الاجتماعية عامة دون تمييز أو تفريق ، ومن هذا النوع الأخير الجمعيات الخيرية وجماعات الملاعب الشعبية ، وجمعيات التمريض ، وبخان تنظيم الحياة المنزلية ، وبخان تحسين المدن وأندية الروتري وجمعيات الآباء وجماعات الكشافة ومعسكرات البنات . ولكل جماعة من هذه الجماعات أغراض تسعى إلى تحقيقها ويدل عليها اسمها ، وهى كلها جماعات خيرية متطوعة تعتمد فى نفقاتها على الهيئات التى تصل إليها . ومع أن نفقاتها ضئيلة جدا ، فإن هذه الهيئات كانت إلى عهد قريب تكفى أسد جميع حاجتها " .

(سادسا) حصص متجر فى "ستوكهلم" يسمى متجر "نورديسكا كومانيت" وبه نحو ألفين من العمال والعاملات جزيرة فى ضواحى العاصمة لعماله وعاملاته بها منزل ريفى يتسع لسبعين نازلا يمضون فيه بالتناوب أيام العطلة . كما خصص لهم فى ميزانيته ألف جنيه تصرف سلفيات وستة آلاف جنيه لمساعدات فى علاج المرضى وتعليم الشبان .

و شترى متجر الدخان فى المدينة منزلا لعماله فى الريف على بعد ستة كيلو مترات من ستوكهلم واتفق مع المجالس البلدية على تخصيص مئات من الأسرة لعماله فى المستشفيات الحكومية .

* * *

وهذه الأمثلة المتقدمة تعطى فكرة عن معنى "الخدمة الاجتماعية" فى شتى الاتجاهات ، وهى لا تزيد على أنها أمثلة لمئات من الخدمات الاجتماعية التى أصبحت سمة العصر الحاضر وانتشرت فى كل مكان وحلت محل الاحسان الساذج الفردى الذى يتهى أثره بعد مرة أو مرات ، ولا يوجد من الضمانات مايدل على أنه فى كل مرة يوضع فى موضعه الصحيح.

ولا يستطيع الإحسان الفردى الساذج الذى نزاوله فى مصر أن ينهض بما نهضت به الخدمة الاجتماعية مع حاجتنا الماسة اليها بسبب انتشار المرض والجهل والفقر بين القسم الأكبر من الشعب ، وحاجة الملايين فى وادى النيل الى العطف والرعاية والمساعدة .

وواضح أن هذه الخدمات لم تكن الحكومات فى أمم أوربا وأمريكا قادرة على النهوض بها لو انفردت بحمل تبعاتها ، فإنها تستغرق نفقات ضخمة وجهود كثيرة لا تستطيع لميزانية أن تواجهها مهما بلغت من سعة الموارد .

واذا كانت الأمم الأوربية والأمريكية قد اعتمدت على الخدمة الشعبية لعجز ميزانياتها عن القيام بكل ما تتطلبه هذه الخدمات ، فإن مصر أحوج الى الجهود الشعبية فى هذ المجال من تلك الأمم جميعا . ويرجع ذلك الى سببين :

الأول — أن المحتاجين لهذه الخدمات يبلغون الملايين من الفقراء والمرضى والجهال والصبية المشردين والنسوة الخاطئات والعمال والعاملات وخريجى الأحداث والسجون وغيرهم من الطوائف الكثيرة العدد التى لا تجد من المال ولا من الصحة ولا من العلم ماتواجه به الحياة . ونسبة هؤلاء جميعا أعلى من نسبة أمثالهم فى الشعوب الأوربية والأمريكية بلا جدال .

وقد نشأت هذه النسبة العالية من سوء توزيع الثروة فى البلاد ومن ضيق الموارد القومية بسبب تخلفنا الصناعى وعجز الزراعة ، وهى تسير على الوتيرة القديمة ، عن مسايرة تزايد السكان ولا يزال هذان العاملان يزيدان الحالة سوءا دون أن نجد فى أنفسنا الجرأة الكافية على مقاومتها .

فنحن لا نحاول الاقتداء بالشعوب التى عملت على حسن توزيع الثروة بين الأفراد عن طريق الضرائب المتدرجة وإعفاء الفقراء منها أو تخفيفها ليستطيعوا أن يجدوا اللقمة المغذية والكساء الواقى والعلاج الشافى ولو فى أضيق الحدود .

ونحن كذلك لا نحاول أن نجدد مواردنا العامة زراعية كانت أم صناعية ولا نزال نسير سير السلحفاة بينما يقفز تعداد السكان قفزات متوالية كل عشر سنوات .

الثانى — أن ميزانيتنا العامة لا تستطيع أن تخصص من دخلها قسما كبيرا للخدمات الاجتماعية التى اضطرت الدول الأوربية والأمريكية أن ترصد لها مبالغ هائلة .

وعلى سبيل المثال أذكر أن انجلترا أنفقت فى العام الماضى ثمانين مليونا من الجنيهات فى باب واحد من أبواب التيسير على الفقراء ، وهو ضمان تغذيتهم بشراء المواد الغذائية بأسعارها المرتفعة وبيعها لهم بأثمان تناسب مقدرتهم على الشراء .

وانما استطاعت هذه الأمم أن ترصد تلك المبالغ الضخمة لسعة موارد ميزانياتها من جهة ، ولمرونة هذه الميزانيات من جهة أخرى . تلك المرونة التى كسبتها بضرائب الدخل وضرائب التركات المتدرجة . بينما ميزانيتنا عاجزة عن مواجهة هذه المهمة لضيق مواردها وعدم مرونتها بسبب توحد الضرائب .

ومع ضيق الميزانية وجمودها فهى تحاول أن ترصد للجمعيات مبالغ كبيرة نسبيا ، غير أنها لا تكافئ الحاجة الماسة المتسعة المنتشرة فى كل جوانب الحياة . وتضطلع هذه الميزانية الآن

بالانفاق على ٤١ ملجأ تضم نحو خمسة آلاف لاجئ نفقاتها نحو مائة وخمسة وستين ألفا من الجنيهات . وعلى ٤٨٠ مستشفى وعيادة خارجية تبلغ تكاليفها نحو مليون وثلثمائة ألف جنيه وعلى ٩٣ مركزا لرعاية الطفل و٩٤ عيادة للبلهارسيا والأنكلستوما .

وتعين الحكومة كذلك جمعيات خيرية وهيئات رياضية بنحو خمسة وعشرين ألف جنيه كما تنفق وزارة الأوقاف على الأعمال الخيرية نحو مائة ألف جنيه .

واذا اعتبرنا التعليم خدمة اجتماعية بمعناها الأوسع جاز لنا أن نضم الى ماتنفقه الحكومة على الخدمات الاجتماعية نحو خمسة ملايين جنيه وكذلك تضم اليها سبعة عشر ألفا من الجنيهات المرصودة للمراكز الاجتماعية هذا العام .

ومن هذه الأرقام يتبين أن الخزانة العامة لا تستطيع — فى حدود مواردها الحالية — أن تنهض بأكثر مما تنهض به من الخدمات الاجتماعية الحالية ، اللهم إلا قليلا لا يغنى فى مواجهة المطالب المتزايدة الملحة .

ونخلص من ذلك كله إلى أن الجهود الشعبية والتبرعات الشعبية هى التى تكفل أن تنهض بتلك الخدمات كما هو حاصل فى جميع بلاد العالم المتمدين ، وبغير هذه التبرعات وتلك الجهود سنبقى متخلفين فى هذا المجال الذى هو خير ما اتسمت به مدنية العصر الحاضر .

وهناك بوادر طيبة لتبلور الإحسان الفردى فى صورة خدمات اجتماعية تقوم بها هيئات منظمة ، ففى مصر الآن خمسمائة جمعية خيرية تبلغ ميزانية بعضها ، كالجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية العروة الوثقى وجمعية المساعى المشكورة وجمعية التوفيق القبطية وسواها ، عشرات الألوف من الجنيهات ، وتنهض ببعض أنواع الخدمة المفيدة كالتعليم والمستشفيات والملاجئ وفى مصر ٦٥ ملجأ أهليا و ١٦٦ ملعبا رياضيا و١٧٧ ناديا للرياضة وعدد كبير من الحمامات التى يقوم بها أفراد .

إلا أن معظم هذه الهيئات يزاول البر على الطريقة القديمة ولا يماشى العصر الحديث ومطالبه واحتياجاته ، وإن كان بعضها لآخر قد تنبه إلى هذا النقص فأخذ يعمل على علاجه فى حدود موارده الصغيرة كجماعة الرواد التى افتتحت محلين لتهذيب الأطفال المحرومين بعد دراسة أحوالهم ومؤاخاتهم ومد يد المعونة اليهم والى أهليهم . ومثل رابطة الاصلاح الاجتماعى التى افتتحت دارا لكفالة الطفل على مثال محلات الرواد ، ودارا لكفالة الفتاة ، ومكتبا للإرشاد الاجتماعى ، ومدرسة لتعليم الفتيات رعاية الأطفال . ومثل جمعية الشبان المسيحيين التى افتتحت نادى كوبرى الليمون للأطفال المحرومين ، ومثل جمعية نهضة القرى التى تكافح الأمية فى صفوف الكبار وتنشر العلم والنور فى الريف . ومثل جمعية الدراسات الاجتماعية

التى قامت بإجراء تجارب طبية فى قريتين من قرى الوجه البحرى لدراسة حالة الفلاحين ومحاولة النهوض بهم من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية، ومثل لجنة السيدات التى تعمل تحت إشراف وزارة الشئون الاجتماعية لمساعدة الأسر الفقيرة .

غير أن معظم نواحى النشاط الاجتماعى لا تزال خالية ، ولا تزال فى حاجة لمن ينهض بها ويملأ فراغها، علاوة على أن القائم منها فى حاجة إلى توسيع أعماله بالتبرعات المادية وبجهود المتطوعين والمتطوعات . وأذكر على سبيل المثال ، التطوع فى المستشفيات ومراكز رعاية الطفل على اختلافها . وليس أرحم ولا أبر من قلوب السيدات والأوانس فى هذا المجال .

وفى مصر جمعية نسائية لتحسين الصحة أخذت على عاتقها معاونة الأسر التى يمرض عائلوها بالسل ويعجزون عن الإنفاق بالطعام والكساء والدواء والمسكن الصحى . وهذا المرض القاسى المنتشر فى مصر والذى يودى بحياة ثلاثين ألفا من المصريين فى كل عام ويلقح بمكروبه نحو ثلثمائة ألف فى حاجة إلى الكفاح، وخير أنواع الكفاح هو التغذية والمسكن الصحى . وقد مضى على هذه الجمعية نحو عامين ولكنها لم تستطع التوسع فى مهمتها النبيلة لأنها فى حاجة إلى سيل من التبرعات بكل مأكول وملبوس ومفروش ، كما أنها بحاجة إلى متطوعات كثيرات ينهضن بهذا الواجب النبيل .

وفى مصر جمعية نسائية لمساعدة الأمهات والأطفال تعمل على انتشال الفتيات الشاردات وردهن إلى الطريق القويم، وإنقاذهن من الرق الأبيض، وهى فرع للمكتب الدولى لحماية المرأة . ولكن معظم المتطوعات له من الأجانب ، ولم تلتفت إليه السيدة المصرية التى تضيق بالوقت فتنفقه فيما لا يفيد .

ومثل هذه الجمعيات القائمة كثير فى حاجة إلى أن يوسع أعماله ويزيد نشاطه ، ولكن يقف فى طريقه المال والجهد، وكلاهما مما يتبرع به الأفراد فى أمم العالم المتمدينة، وهو من صميم عمل الشعوب لا الحكومات .

وفى الأمثلة التى صدرت بها هذا المقال ما يكشف عن مدى استطاعة الأفراد والهيئات أن تعمل، وفى المثل الخاص بمتجر "نورديسكا كومبانيت" بيان لما يستطيع أصحاب الأعمال وكبار الملاك عندنا أن يعملوا للترفيه عن عمالهم وفلاحيهم فى حدود البيئة المصرية وهو لا يكلفهم كثيرا بالقياس إلى ما يفيدون من إخلاص هؤلاء العمال والفلاحين وتقوية أبدانهم على الجهد.

وكل ميادين الخدمة الاجتماعية فى مصر لا تزال بكرا ، والشعب هو المطالب بالعمل فيها قبل الحكومة حتى يجارى عقلية العصر الحاضر التى تتجه اتجاها ظاهرا للخدمة الاجتماعية والتضامن الاجتماعى ويستطيع كل فرد أن يميز نفسه فى هذا المجال الجديد ، فيحسب رائدا من رواد الجيل ، وليس هذا باللقب الصغير .

عبد السلام الشاذلى